في الأدب المقارن

غرض الأدب
في الأدبين العربي والانجليزي
للأستاذ فخري أبو السعود

التعبير عن خوالج النفس الانسانية وتأثراتها بمظاهر الكون المحيطة بها هو غرض الفنون جميعاً ومن بينها الأدب. ولا يرقى الأدب إلى مرتبة الفن السامي حتى يكون ذلك التعبير عن المشاعر النفسية غرضه الوحيد، منزهاً عن كل غرض خارجي أو مطلب مادي؛ فاذا خالطه شيء من ذلك هبط إلى مرتبة الصناعة، ولم يعد له في النفوس ذلك الوقع المطرب الذي تتركه فيها الفنون الجميلة

وقد ظل التعبير الحر الصادق عن توازع النفس غرض الأدب الانجليزي الوحيد في أغلب عصوره، فلم يكن غرض الكاتب أو الشاعر مما ينشيء إلا الافصاح عما يشعر به أو يفكر فيه؛ فزخر الأدب في عصوره المتوالية بألوان الشعور وأشتات الأفكار في مختلف مشاعب الحياة ومتباين حالات النفوس؛ وتناول بالتصوير والتحليل دخائل النفوس وأغوار الطباع وأطوار الأفراد والمجتمعات، ولم يدع خوله شاردة ولا واردة من توازعهم وبوادرهم ومشاهداتهم وتأملاتهم إلا أثبتوها في منشآتهم وأبرزوها في روائع الصور

وكذلك كان التعبير الصادق المنزه عن الغرض الخارجي غاية الكثير مما نظمه الشعراء وسطره الكتاب في العربية، وحفل الأدب العربي بالرائع من الحكم والأمثال والدقيق من أوصاف النفس وغرائزها وميولها؛ وأمثلة ذلك أكثر من أن تحصى أو يشار إليها، وإنما نذكر منها الوصايا المنسوبة إلى بعض خول العربية، كذي الاصبع العدواني وعلي بن أبي طالب، ومنها وصية ابن هراسة لابنه حيث يقول: «إن من الناس ناساً ينقصونك إذا زدتهم، وتهون عليهم إذا أكرمتهم. ليس لرضاهم موضع فتقصده، ولا لسخطهم موقع فتحذره. فاذا عرفت أولئك بأعيانهم، فأبد لهم وجه المودة، وامنعهم موضع الخاصة، ليكون ما أبديت لهم من وجه المودة حاجزاً دون شرهم، وما منعتهم من موضع الخاصة قاطعاً بحرمتهم»

غير أن في الأدب العربي بجانب ذلك آثاراً كثيرة لم يكن التعبير عن خوالج النفس غرضها، ولا الصدق شعارها، فهي لذلك لا ترقى إلى مرتبة الفن الجميل، ولا تؤثر في النفس تأثيره، وإنما هي أدنى إلى الصناعة؛ لها كالصناعة غرض مادي تؤديه وغاية خارجية تخدمها. ولا غرو كان العرب يسمون النظم والنثر بالصناعتين، ويعدون الأدب «صناعة» أو «آلة» «يتعاطاها» صاحبها، ولم يكن لكلمة «الفن» لديهم ما لها اليوم من المعنى السامي

بلغ الأدب العربي مرتبة الفن السامي في عصر الجاهلية، حين كان أشراف القبائل وحكامها يودعون الشعر حكمتهم وأطرابهم وأحزانهم؛ فلما قامت الدولة العربية صحبتها عوامل لم تكن لتساعد على اطراد رقي الأدب في وجهته الصحيحة، بل عملت في غير ناحية على تقهقره وفقدانه ما كان له في الجاهلية من قوة وصدق وسمو، وهي سمات الفن الصحيح، حتى أصبح من السهل تقسيم الآثار الأدبية، بل تقسيم آثار كل أديب مفرد، إلى قسمين: قسم صادق يصدر عن شعور صحيح ويدخل في دائرة الفن السليم، وقسم كاذب مملوء بالمفارقات والمبالغات يمت إلى الصناعة ولا يمت إلى الفن

وأول تلك العوامل ذيوع التكسب بالشعر، فأنه جعل للشعر غرضاً سوى التعبير عن خوالج النفس الذي هو غرض

هنا ودفعت إلى ورقة فيها هذه العبارة الوجيزة:

«لا بأس! لعلكم نسيتم. والآن يجب أن تجيئوا أنتم إلينا. ولن نهرب منكم كما هربتم منا»

قرأتها وهممت أن أدسها في جيبي ولكن زوجتي سألتني ماذا فيها؟ فقلت إنهما يعترفان بخطئهما، ودفعت إليها الرقعة وذهبت أعدو.. وكيف أقنعها بأن الذي وقع خطأ غير مقصود.. كلا. لا فائدة. والهرب أحجى وأرشد... حتى تهدأ الفورة

ابراهيم عبد القادر المازني

الفنون جميعاً ، وصير له غاية مادية هي صلة الممدوح التي قامت مقام الحافز النفسي والشعور الصادق ، فسارع إلى الشعر الكذبُ والمبالغة ، وهبط عن مرتبة الفن السامي وصار صناعة تمارس ويبرّز فيها ذوو اللباقة والمهارة ، لا أصحاب العبقرية والنفوس الكبيرة ؛ وداخل النثر من هذه السمات ما داخل الشعر ، لأنه مثله سخر نفسه لخدمة الحاكمين

وثاني العوامل هو نزعة المحافظة والتقليد ، التي سرعان ما تمكنت من الأدب العربي ، حين أشفق العرب على أدبهم ولغتهم ودمائهم مما اجتاحها من هجنة الأعاجم الداخلين في دينهم ولسانهم ومجتمعهم ؛ أدى ذلك إلى الضن الشديد بآثار المتقدمين والتبجيل العظيم لأشكال الأدب وصوره في عهدهم ، والاعجاب المطلق بأشعارهم وخطبهم ذات اللغة الفصيحة السليمة ؛ وتمادى الشعراء فقلدوهم في وعورة الألفاظ أحياناً ، وفي المعاني وضرب الأمثال والاستهلال بالنسيب ، وتمادى الكتاب فأنحوا على آثار المتقدمين محاكاة واقتباساً وتضميناً ؛ وفي مثل هذا الجو من المحافظة والتقليد يخمد الفن الصحيح الذي يصدر عن صادق الشعور ، ولا يسود إلا الصناعة التي تتكلف الألفاظ وتتعمل المعاني

وثالث تلك العوامل اعتزال الأدب العربي غيره من الآداب ، فهو قد أهمل الأدب اليوناني ولم يتأثر بالأدب الفارسي ، إلا قليلاً عن غير قصد ، وانصال الأدب بغيره من آداب الأمم شرط أساسي لدوام رقيه في معارج الفن السليم ، لأن ذلك الاتصال يدخل في الأدب صادق النظرات والأفكار ، التي تشترك فيها الانسانية جمعاء على اختلاف المشارب واللغات ، دون التفات إلى زخارف الألفاظ وتلفيقات المعاني ، التي لا تمت إلى الطبع السليم بصلة ، ولا تتعلق من الفن الصحيح بسبب . واعتزال الأدب غيره ينحرف به شيئاً فشيئاً عن وجهة الفن القويمة ، ويميل به إلى ناحية التكلف والتعمل والتقليد والجمود والصناعة

ولما كان الكاتب يكتب والشاعر ينظم ونصب أعينهما غايتان : إرضاء صاحب السلطان الذي تسخر له الأقلام ، وإرضاء النقاد الذين لا يريدون عن مناهج الأولين حولاً ، لم يسعهما إلا الاقلاع عن محاولة التعبير عن شعورهما الصادق ، واللجوء إلى محاولة إظهار البراعة ليرضيا الفريقين ، فصارت البراعة — لا صدق التعبير عن الشعور — هي غاية الأديب . فالبحتري وابن المعتز والبديع وابن العميد والحريري وأضرابهم ، فلما نظموا أو نثروا بغية التعبير الصادق البسيط عن مشاعر حارة تتلجلج في نفوسهم ولا يستطيعون لها حبساً ، وإنما كان إبداء البراعة وطلب الاعجاب وتحري الاغراب ديدنهم في معظم ما أنشأوا ، وكتاباتهم لذلك — حتى حين يجيدون — فاترة الشعور باردة الوقع لا تنفذ إلى القلب ولا تهز النفس ، ربما أوحت إلى المطالع أن أصحابها يازعون ، ولكن قلما توحي إليه أنهم نوابغ عظماء ذوو نفوس كبيرة ونظرات بعيدة

ولما جهد الأدباء في تقليد معاني الأقدمين ومناحيهم ، واختراع أوصاف الممدوحين ومحامدهم ، حتى لم يَعُدْ في مجال المعاني متسع لتكلف ، التفتوا إلى الألفاظ يطالبون في مجالها السبق والبراعة ، ففشت المحسنات اللفظية ، فكانت انحرافاً جديداً للأدب عن جادة الفن القويم ؛ وشغل الأدباء بالسجع والجناس والمقابلة وحسن التعليل عن صدق الشعور وصدق التعبير ، وركبت الصناعة الأدب من ناحيتيه : ناحيتي المعنى واللفظ

وطلب الأدباء البراعة من طريق آخر : فأقحموا في الأدب ما ثقفوه من مصطلحات العلوم ومسائلها ، كعلوم النجوم والكلام والنحو والمنطق ، فتجلت البراعة فيما أنشأوه من ذلك ولكنه فقد دبيب الحياة ، فمن تقليد قضايا المنطق قول المتنبي :

تقولين ما في الناس مثلك عاشق ... جِدِي مثل من أحببته تجدي مثلي

وقول الشاب الظريف :

رمى فأصاب قلبي باجتهاد ... صدقتم : كل مجتهد مصيب

ومن استخدام مصطلحات النحو قوله :

لأي شيء كسرت قلبي وما التقى فيه ساكنان ؟

ووقر في نفوس كثير من الأدباء أن الأدب مجال للصناعة والبراعة ، وليس مظهراً لأحاسيس النفس ولا مستودعاً لخوالجها . فاذا أعوزهم ممدوح يثنون عليه بما هو ليس أهله من المبالغات ، طلبوا البراعة واصطنعوا التظرف بوصف أمر تافه ، كحَمل هزيل أو قدح خمر أو محبرة أو يراع ، الى غير ذلك مما لا خطر له في ذاته ، ولكنه يمنح الفرصة لطلاب البراعة ليُظهروا لطافة بديهتهم وحسن محاضرتهم ووفرة محصولهم اللغوي . وكثيرا

ما كانوا يتبادلون ذلك فى الرسائل الاخوانية ، والكتب التى يستهدون فيها الخمور والأقداح والمزاهر والقيان

ولأصدار الأدباء فى كتاباتهم عن أغراض مصطنعة بعيدة عن غرض الفن الصحيح نجد الكثيرين منهم يقفون مواقف متناقضة : فيمدح أحدهم الرجل أرفع المدح ثم يذمه أقبح الذم ، فأن خاف بطشه عاد مستغفرا متزلفا يقول كما قال الأعشى :

سأمحو بمدح فيك إذ أنا صادق كتاب هجاء سار إذأنا كاذب

ويطلب أحدهم البراعة بتحسين القبيح وتقبيح الحسن ، أو بمدح الشىء الواحد وتحسينه ثم ذمه وتقبيحه ، كما فعل الحريرى حيث جعل أبا زيد يمدح الدينار بمقطوعة من الشعر ، ثم يذمه بأخرى حين اقترح عليه بعض الحضور أن « يذمه ثم يضمه » ، ويدّعى المتنبى الغرام والصبابة والتحول فى مطالع أماديحه ، فاذا أفصح عن صادق شعوره وميوله قال إن المجد ليس زقا وقينة ، وأن للخود منه ساعة ثم بينهما فلاة ، وأنه يرى جسمه يكسى شفوفاً تَرِبُه ، وقال :

ومن خبر النوانى فالنوانى ضياء فى بواطنه ظلام

وجاء النقاد فأقروا الشعراء على هذا التناقض ، وأباحوهم ضروب اللغو والهذر ، وأخذوا تلفيقاتهم فى قصائد المديح مأخذ الجد ، وأضاعوا وقتهم ومنطقهم وحججهم فى الموازنة والمفاضلة بينها ، وفضلوا شاعرا على شاعر ، لا لصدق شاعريته وصدق فهمه للحياة ، ولكن لبراعته فى احتيال الحيل اللفظية والمعنوية لتفخيم شأن ممدوحه . فقدامة بن جعفر مثلا يقدم الأعشى فى قوله فى ممدوحه :

وإذا تجىء كتيبة ملمومة شهباء يخشى الراهبون نهالها
كنت المقدم غير لابس جُنة بالسيف تضرب مُعْلَمًا أبطالها

على كثير لقوله فى ممدوحه :

على ابن أبى العاصى دِلاص حصينة أجاد السُّرَى نسجها وأذالها
يود ضيف القوم حمل قتيرها ويستظلع القرم الأشم احتمالها

لأن الأول جعل صاحبه يغشى الوغى غير مدرع ، والثانى وصف صاحبه بالتحصن وراء الدروع الثقيلة . يفاضل قدامة بينهما بصرف النظر صرفا تاماً عما إذا كان المعنى المذكور فى كل حالة صحيحاً ، فالمسألة لا تتعلق لديه بالتزام الصدق ، بل البراعة فى الاختراع والمبالغة وتهويل أمر الممدوح ووصفه بكل عظيمة صحيحة أو مزعومة ، ممكنة أو مستحيلة

وبهذا المقياس المجحف الذى لا يقيم اعتباراً لصدق الشعور والتعبير ، بل يجعل الاعتبار كل الاعتبار للبراعة واللباقة والخفة والاحتيال ، قاس كثير من النقاد آثار الأدباء وفاضلوا بينهم . بل إن النقاد صرفوا جل اهتمامهم إلى ذلك الضرب الصناعى من الأدب الذى قوامه التعمل والاختراع ، وعماده الأقيسة المنطقية ، بل المغالطات المنطقية ، وأهملوا الضرب الصادق الذى يُترجم عن شعور الأدب الصحيح . فاذا رأوا أثراً من هذا القبيل مروا به كراما ولم يروه أهلا للنقد والتحليل ، لأنهم يرونه بسيطا عاديا غير محتو على براعة لفظية أو معنوية . والأدب كان فى نظر كثير منهم صناعة لا فناً . وقد سمى أحدهم وهو أبو هلال العسكرى كتابه فى أصول الشعر والنثر : « كتاب الصناعتين »

والحق أن أكثر ما يعرف اليوم بالفنون الجميلة كان لدى العرب صناعات ؛ فالأدب والموسيقى والعمارة والنحت والتصوير كل هذه كانت أشبه بالصناعات ، لأنها كانت فى أكثر الأحيان تخدم أغراضاً مادية خارج ذاتها ، وكانت تنتج نتاجها فى ظلال الملوك والكبراء الذين يسخرونها لأبهتهم ومتعتهم ، ولم تنل من الاستقلال الفنى والغرض الذاتى مالها اليوم . ومن ثم ظل الفنان الأخيران دائما فى حالة بدائية لم يتعدياها الى أطوار الفن السامية

ولقد تترعرع الفنون الأخرى كالعمارة والنحت والتصوير فى ظلال الرعاية والمنحة من جانب الأمراء ، كما حدث فى عهد النهضة الايطالية التى أنجبت رافائيل وميكلانجو ودافنسى وعشرات من أمثالهم ، أما الأدب فهو أشد احتياجا إلى الحرية وأسرع انحطاطا وركودا فى ظلال الاستبداد ، فأن الملكية المستبدة إذا سخرته لأغراضها وسيرته فى ركابها حملته على إخفات الحق وإغفال الصدق ونسيان رسالته ؛ ولهذا ازدهر الأدب فى انجلترا أكثر من ازدهار غيره من الفنون التى اقتبسها الانجليز عن أهل القارة ، حتى بارى الانجليز غيرهم فى الآداب وبذوهم ؛ فقد ألفى الأدب فى انجلترا من حرية الفكر والتعبير أكثر مما ألفى فى غيرها . ولنفس السبب ازدهر الأدب فى المدن الأغريقية ، على حين كان رقيه فى روما الملكية قصير العمر

لم يُسخِّر الأدب الانجليزى نفسه لتمليق الأمراء والكبراء، كما سخَّر الأدب العربى نفسه، ولم يصرفه طلب رضاهم عن طلب رضى الفن الصحيح، وإن كان بعض رجاله — منذ عهد شكسبير — قد تزلفوا إلى سلطان آخر غير سلطان الحاكمين، فطلبوا رضى الجمهور من رادة المسارح وقراء الكتب، ولو بتضحية رضى الفن أحياناً. على أن ذلك قلما كان؛ وأكثر الأدباء احتفظوا بسمو الأدب وأرستقراطيته، ولم يلبث انتشار التعليم أن وسع دائرة القراء الذين يقدرون الفن الصحيح ويتسامون عن الفضول؛ وانقسم الكتاب إلى فريق محافظ على سمو الأدب، فهم عماد الأدب السامى، وفريق ينشد إقبال العامة باللغو والهراء. ولم يحدث أن هبط الأدب جملة عن مرتبة الفن الصحيح المنزه الغرض

كذلك ربأ بالأدب الانجليزى أن تركبه الصناعة وتغلبه على غرضه الصحيح، دوام تبصر رجاله فى الآداب الكلاسية والأوربية المعاصرة، فكان معين تلك الآداب يجرى فى شرايينه من آن لآخر، فيجرد ما فَتَرَ فيها من دفعة الحياة، فكلما مر الأدب بطور ركود تغلب فيه الصناعة الفن الصحيح — كذلك الذى مر به فى بعض القرن الثامن عشر — شعر الأدباء بعظيم الفرق بينه وبين الآداب الأخرى، فانتشلوه من وهدته

ومما ساعد على احتفاظ الأدب الانجليزى بصبغته الفنية، وحماه الهبوط إلى درك الصناعة الرخيصة، إطلاع نحوله على آثار الفنون الأخرى الراقية، من تصوير ونحت، تلك التى تشترك جميعاً فى غرضها الذى ذكر فى أول هذه الكلمة، وهو التعبير الصادق عن الشعور الصحيح، فكان للأدب دائماً من تلك الفنون أسوة، تهيب به أن يحيد عن جادته أو ينحرف عن غايته، أو يضل فى تيه التلفيقات المعنوية والزخارف اللفظية

وقد راج فى الأدب الانجليزى ضروب من القول قد يتبادر إلى الظن لأول وهلة أن الأديب يتجرد عندها من نوازعه الشخصية وشعوره الصحيح ويطلق العنان للخيال والصناعة، كالرواية التمثيلية والقصة والملحمة التى يتحدث مؤلفها عن أشخاص بعيدين عنه ويصف عواطف غيره وتصرفاتهم، ولكن الواقع أن المؤلف فيها لا يقل صدقا ووفاء للحياة وحقائقها عن المؤلف فى غيرها، ولا هو يتجرد من ميوله، بل يخلع تلك الميول على أبطاله، وينطق أفكاره ومشاهداته على ألسنتهم؛ فكل بطل من أبطال شكسبير، كهملت وعطيل ولير، يمثل حالة من حالات نفسه وفكرة أو فكرات من أفكاره؛ والقصصى الانجليزى الذى يتحدث عن الآخرين فى كتاباته أصدق وأكثر إفصاحاً عن ذات نفسه من الشاعر العربى الذى يشبب بليلى ودعد ويصف ممدوحه بغير ما يعلم فيه

فى كلا الأديبين العربى والانجليزى ترى فى آثار الفحول دلائل الطبع الجزل والشعور الصادق والفن الصحيح، ولكن نظراً لتلك العوامل التى صاحبت الأدب العربى فأفشت الصناعة فى كثير منه، وهذه العوامل التى لازمت الأدب الانجليزى فساعدته على الاحتفاظ بسمات الفن، جاء الأدب الانجليزى أحفل بصادق الشعور وجاد الأفكار من الأدب العربى، وكان التعبير الصادق عن النفس الانسانية غرضه دائماً، على حين زاحمت هذا الغرض فى الأدب العربى أغراض أخرى: كالصناعة وطلب البراعة والاغراب والتظرف ومحاكاة الأقدمين

فتحى أبو السعود

أحمد سعد الهوارى

يقدم لكم فى أول يناير هدية السنة الجديدة:

المسرحية الشعرية الخالدة

الرداء الأزرق

مصرية: تحل مشكلة من أهم مشاكل العصر الحاضر

مصرية: موضوعها من صميم الحياة المصرية، تحمل الطابع المصرى الأصيل، عنوان المسرح المصرى الناضج، المسرح المصرى الصميم أروع ما يكون الفن، وأسمى ما بلغ الشعر

(طبعة فخمة ثمنها ٤ قروش ويطلب من المكاتب الشهيرة)

عنوان المؤلف: منشاة المناقلة، ملوى